

لكاتب خروج عسيقات الانكليزي للرواية جون فاويز المعاصرة الضابط الفرنسي

بقلم
محمد الحديري

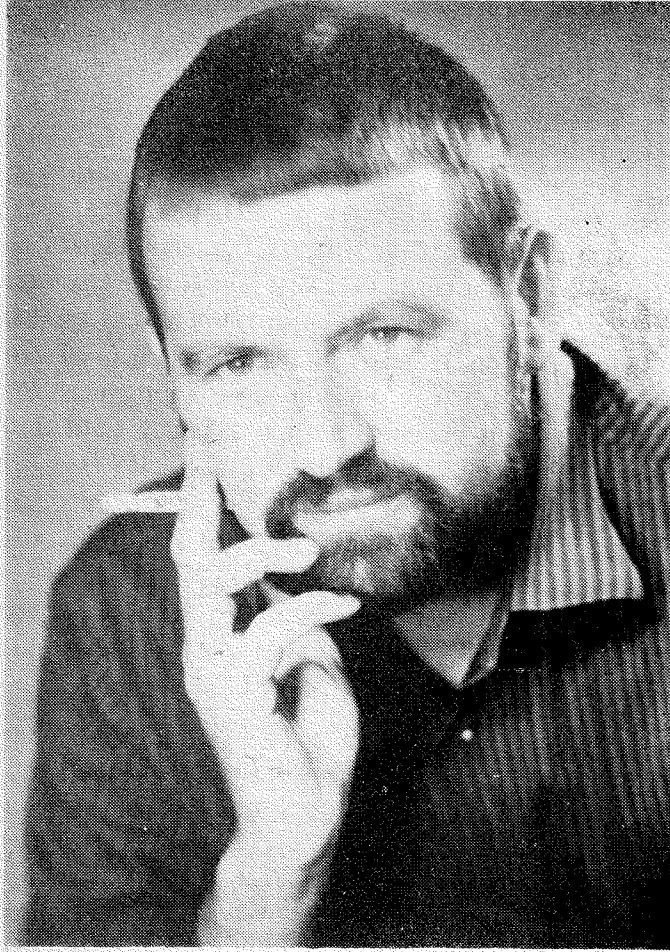
روايته الضخمة « شرقي عدن » ، يمضي مئات الصفحات ، ثم يفاجئنا بالحديث عن نفسه قائلا انه ابن « اوليف هاملتون » زوجة « ارنست شتاينيك » ، وهما شخصيتان غير رئيسيتين في الرواية ، والذي يومية اليه شتاينيك هنا هو انه عرف بأحداث هذه الرواية من كونه ابنا لابنتين من الذين عاصروها وحضروا وقائمه ، وهكذا يذكر نفسه باسمه الحقيقي « جون شتاينيك » ، والفكرة التي تنطوي وراء ذلك هي انه - وهو يكتب رواية مينافيزيقية تعرض لقضية الخير والشر ، وتقدم لنا شخصيات ترمز لآدام وابليس وحواء وقابيل وهابيل - يريد ان يرمز لكونه وجد في هذه الدنيا بعد حدوث هذه الوقائع وسمع بها ممن سبقوه الى الدنيا . وهذا الذي يلمح له شتاينيك يذكره نجيب محفوظ بوضوح في اول صفحة من روايته « اولاد حارتنا » وهي رواية من نفس الطراز ، فهو يذكر انه حضر بنفسه بعض حكايات هذه الحارة ، اما ما سبق منها فقد سمعه من الرواة . ثم تمضي الوقائع بعد ذلك دون تدخل من المؤلف .

وكان سومرست موم يقحم نفسه في قصصه ، ويحكي بعضها على انها خبراته الشخصية ، كما هو في قصة « المصححة » مثلا ، وقد اقدم كتاب القصص والروايات على اتخاذ كل ما يمكن ان نفكر فيه من زوايا للرؤية والقص .

اما في هذه الرواية - ووقائمه تحدث سنة ١٨٦٧ ، في منتصف العصر الفيكتوري - فان المؤلف يتخذ موقفا متميزا غاية التميز ، انه يحكي لنا قصته بوصفه مؤلفا ، ويؤكد لنا ذلك مرارا في مواضع مختلفة ، ويأتي بأمور كثيرة ستعرض لها فيما يلي . وهكذا فان الرواية: وهي هائلة الحجم ، تقع في الطبعة التي لدينا في اربعمائة صفحة باصفر بنط في تاريخ الطباعة - تحكي كلها بضمير الغائب ، ولكننا بين آن واخر نجد كلمة « انا » وهي تظالمنا من بين السطور ، وانا هو المؤلف ، الذي لم يكن قد ولد بعد ان انتهى العصر الفيكتوري بزمن طويل ، فهو الان في الرابعة والاربعين . ولكنه - برغم ذلك - يربط نفسه بهذا العصر القريب ، ويقابل ابنا لعاشوا فيه ، او عاشوا فيه هم انفسهم ، ومنهم سيدة ولدت سنة ١٨٨٢ وما زالت حية (او كانت حتى كتابة الرواية ، وقد صدرت سنة ١٩٦٩) ، وكان ابوها طبييب توماس هاردي (توماس هاردي يتمثل كثيرا في هذه الرواية ، بشخصه وبشعره وبشره ، ولعل احفاده يقاضون المؤلف بشأن ما يذكره عنه مما سنأتي به في حينه) . والعصر الفيكتوري ليس عصرا سحيقا على اية حال ، وموقف فاويز هنا ليس كموقف « ماياك فالتاري » وهو يصف لنا

من وجهة نظر « وجهة النظر » يمكن تقسيم الرواية الى نوعين رئيسيين : رواية تقصها علينا احدى شخصياتها ، كما في رواية البير كامو « الغريب » ، ورواية يقصها علينا راو لا نعرفه ولا يفصح لنا عن شخصيته . وفي كلتا الحالتين تتخذ الرواية « شكلا » محسدا ، يصيغها اما بالدرامية او التصويرية كما يقول بيرسي لوبوك ، وذلك نتيجة لوجهة النظر او زاوية الرؤية ، فالراوي الذي يحكي لنا قصة كان هو نفسه طرفا في حوادثها ، لن يستطيع ان يتخذ موقف « المؤلف العالم بكل شيء » كما يسميه لوبوك . ولكاتب الروائي الحق في ان يتخذ آيا من هذين الموقفين ، بل ان يتارجح بينهما ، او يدخل مايشاء من التعديلات عليهما ، حسب ما يراه مناسباً لقصته ، وهو في ذلك يجازف بمدى اقتناع القارئ بما يكتبه ، وعلى ذلك امثلة متعددة نرى ان تقتصر على القليل منها ، وذلك كمقدمة لدراستنا لهذا العمل الروائي الهام « عسيقة الضابط الفرنسي » والذي يتميز باشياء كثيرة ، قد تكون وجهة النظر وغيرها من اعتبارات الشكل هي اكثرها اهمية .

وما دمنا قد ذكرنا رواية كامو « الغريب » في هذا المجال ، فاننا نذكر رأي آلان روب جرييه بشأنها ، وهو انه « يكفي ان نضع بدلا من الضمير الاول للماضي المركب الضمير الثالث العادي للماضي البسيط ، سيختفى عالم كامو تماما وتضيع متعة الكتاب تماما » ، واي له قيمته ، وهو فيما يبدو شيء يتفق عليه اثنان مثل كامو وروب جرييه ، ولكنه لم ينعني من ان اتساءل عندما قرأت هذه الرواية : ما الذي يجعل السيد ميرسو - وهو بطل الرواية والذي يتساءل روب جرييه : كم منا يذكر اسمه ؟ - ما الذي يجعله ، وهو الذي يتخذ من العالم موقف الاغتراب ولا يهتم لشيء في هذه الدنيا ، ما الذي يجعله يبذل كل هذا الجهد ليحكي لنا قصته ؟ فاذا انتقلنا الى رواية كامو الثانية - والرابعة - « الطاعون » ، فاننا نجد هنا يتخذ موقفا استثنائيا ، فهو يحكي روايته بضمير الغائب هذه المرة ، ولكنه يذكر لنا ان هناك راويا لهذه القصة ، وان هذا الراوي يفضل الا يفصح عن شخصيته الا في النهاية وفعلا قرب النهاية يذكر لنا ان الراوي هو الدكتور برنارد ريو ، وهو احدى شخصيتين رئيسيتين في هذه الرواية ؟ ان الامر لا يغير شيئا من الشكل ولا من وجهة النظر ، ولا طريقة السرد ، فلماذا ؟ كل هذه الامور حق مباح لكاتب الروائي على اية حال ، والكاتب الذي يحكي لنا بضمير الغائب ، اي الذي يتقمص شخصية لا تفصح عن نفسها ، من حقه ان ينقلب الى التحدث بضمير التكلم في اي وقت يراه ، وبأي درجة يختارها ، وهناك امثلة على ذلك ايضا : جون شتاينيك فسي



مواكب حور محب وهي تدرع طريق الكباش في روايته « سنوحسي المصري » . وفالتاري يجعل روايته كلها تبدو كما لو كانت اوراق بردى عثر عليها احد علماء المصريات ، وسنوحسي نفسه هو الذي يكتبها . اما فاويز فهو يتحمل المسؤولية كاملة ، ويؤيد كل ما يأتي به باقتباسات من هذا العصر يصدر بها فصول روايته ويجر تحتها خطأ ، كل فصل في هذه الرواية - وهي تقع في واحد وستين فصلا - يبدأ بنماذج منها تتعلق بما يحدث فيه ، اشعار لتوماس هاردي ، وتينيسون ، وكلاف ، وماتيو آرنولد ، وكتابات لداروين وماركس وجين أوستن ، ومقتطفات من تقارير عن هذا العصر ، ومن الصحف التي كانت تنشر اذ ذلك ، تعليقات واعلانات ، واشياء كثيرة جمعها بجهد عظيم وعناية كبرى وكانه سيكتب مقدمة ابن خلدون !

والذي يتأمل هذه النماذج التي اختارها فاويز ، لن يجد فقط ما تدل عليه في سياق قصته ، بل انه سيجد فيها اهم سمات العصر الفيكتوري كانتصار البورجوازية وبدء ظهور الحركات العمالية ، وما ترتب على ظهور مبادئ اخلاقية مثل مذهب بنتام في المنفعة وتفسير ستوارث مل لهذا المذهب وكتابات الادباء الذين عبروا عن السروح البورجوازية وعلى رأسهم تينيسون الذي كان شعره يمتلىء بالتشكك في الدين بناء على داروين ، والذي كان شاعر الملكة والذي يبدو ان فاويز مفرم به غراما كبيرا .

عشيقة الضابط الفرنسي

وقد صدرت هذه الرواية - كما اسلفنا - سنة 1969 ، ولاقت نجاحا كبيرا وكانت واحدة من اكثر الروايات انتشارا طوال عام 1970 ، وان مدى جديتها وعلو مستواها الفكري والادبي ، يجعل انتشارها دليلا على ان الدنيا ما زالت بخير . وهي كما وصفها النقاد دراسة للجنس في العصر ليفيكتوري من وجهة نظر القرن العشرين وبما لديه من المعرفة وتامل في الحياة الجنسية الفيكتورية بالحرية الوجودية لهذا العصر الذي يعيش فيه المؤلف ، ولكننا نسرع فنقول انها ليست رواية اباحية ، وباستثناء موقفين لا يزيد كل منهما عن صفحة واحدة ، لا نجد ما كان يمكن ان يمنع نشره في العصر الفيكتوري نفسه ، ولهذين الموقفين اللذين ذكرناهما ما يبرهما من الناحية القصصية .

وقد حاولنا ان نجد ترجمة دقيقة بقدر الامكان لعنوانها وهو :

«The French Lieutenant's Woman» ، فلم نقل « امرأة

الضابط الفرنسي » لان هذا بالعربية - كما هو بالفرنسية - سوف يعني زوجته ، وليس هذا هو الحال في الانجليزية ، ولعل « عشيقة » هي اقرب تعبير تتيح لفتنا . اما « Lieutenant » فهي هنا لا تأتي بمعناها الشائع « ملازم » ، بل تأتي بمعنى ضابط اول السفينة . والمعنى الاصلي لهذه الكلمة على اية حال هو « معاون » او « مساعد » ، واستخدامها في الحالتين مبني على هذا الاساس ، فاللازم بالجيش وضابط اول السفينة كلاهما مساعد لمن يسمى « Captain » سواء كان ربان سفينة او ضابط برابا بهذه الرتبة . وللقارئ الذي يتوخى الدقة التامة ، فان المقصود هو « المرأة التي عرفت بعلاقتها برجل فرنسي يعمل ضابطا اول باحدى السفن التجارية » .

المؤلف

وجون فاويز من رجال التعليم في إنجلترا ، كان مدرسا ثم ناظرا ، وقد بدأ حياته كمؤلف روايات في سن متقدمة نوعا ما ، فقد كان في السابعة والثلاثين عندما اصدر سنة 1964 روايته الاولى « الجماع » يفتح الجيم وتشديد الميم « The collector » وهي تدور حول فتى مريض العقل يلعب لعبة العنكبوت والذباب مع فتاة . وهي رواية تصور الشر وتؤكد ، وقد نجحت وقت صدورها .

وفي عام 1964 ايضا ، اصدر فاويز كتابا بعنوان « The Asistos » وهي كلمة يونانية تعني « الامتياز » ، وهو كتاب فلسفي يتلهم فيه المؤلف على هراقليطس ، ويؤمن بنظريته في التيار الزمني والصراع

الابدي بين الازداد ، ويدرج فيه عددا من آرائه ومعتقداته في طبيعة الكون ومشكلات الحياة الانسانية .

ثم جاءت روايته الثانية سنة 1966 وهي « المجوس The Magus » وهي ايضا رواية هائلة الحجم تقرب من ستمائة صفحة . والمجوس هنا او « الساخر » طبيب نفسي يملك جزءا من جزيرة في بحر ايجيه يحشد بها عشرات من حواربيه ويجري تجاربه على شخص هو الذي يروي القصة ، وهو من خلال ذلك يرى الالهة : ديانا وانوميس ... الخ ، ولم تلق هذه الرواية النجاح الذي نالته سابقتها .

الشخصيات

تشارلز سميثون : ارستقراطي انجليزي في الثانية والثلاثين ، يعيش على دخل يأتيه من ميراث ابيه ، ويهوى علم الحفريات وتاريخ الحيوان ويشتهل بهما . دارويني يؤمن بالتطور « ولم يكن ليدهش لو جاءت انباء الطائرة والرادار والتلفزيون » ، ينتظر لقباً وثروة كبيرة من عم له لم يتزوج ، وهناك ايضا ثروة اكبر هي بانة خطيبته « ارنستينا فريمان » وهي ابنة تاجر كبير في لندن .

لا تدري ما اذا كان المؤلف يتعمد ان يشركه مع داروين في اسمه الاول « تشارلز » ام ان ذلك يأتي مصادفة . ولكنه يقول عنه : « كان تشارلز يعتقد انه يختلف عن معاصريه من الارستقراطيين والنبله ، وهذا هو السبب في كثرة اسفاره ، انه يجد المجتمع الانجليزي منقرا ، والوقار الانجليزي اكثر وقارا مما يجب ، والفكر الانجليزي اخلاقيا اكثر مما يجب ، والديانة شديدة التعصب » ويقول عنه ايضا « كان تشارلز - كما لا بد انكم تلاحظون - يتكلم ثلاث لغات ، مع خادمه في الصباح ، ومع خطيبته في الظهيرة ، ثم الان ، لقد كان يوشك ان يكون ثلاثة رجال مختلفين ، وسوف يظهر المزيد قبل ان ننتهي ، انها الظاهرة التي

يسميتها داروين : التلون حسب البيئة »

كل من يعاني الوحدة - قرأت منهما أكثر من غالبية بنات جنسها بكثير))
ثم : « وهكذا حكم عليها القدر بالمصير الذي انفتحت الطبيعة ملايين
السنين في تطويرها بحيث يمكنها ان تتجنبه : وهو ان تكون عانساً » ثم
« لا يمكنني ان اقول ما الذي كان يمكن لسارة ان تكونه في عصرنا هذا ،
ولكنها في عصر من عصور الماضي البعيد، اعتقد انها كان يمكن ان تكون
اما قديسة او محظية امبراطور » .

سام فارو : خادم تشارلز الذي لا يفارقه ، يتحدث بلهجة
« الكوكنى » المضحكة ، « وكل خادم يدعى سام ويتحدث الكوكنى ،
يعيد الى اذهاننا فوراً ويلز الخالد ، ومن المؤكد ان سام قد نبع من
نفس هذه البيئة . بيد انه قد مضت ثلاثون سنة على ظهور اوراق
بيكوك، والتي رآها سام على المسرح وعرف منها سام ويلز . لقد كان
سام يشبه الرجل المصري الذي يقن ان معرفة جيدة بالسيارات دليل
واضح على تقدمه » وقد كانت اقامة تشارلز في لايم وسيلة تعارف بين
سام وماري ، خادمة مسز ترانتر ، خالة ارستينا . فتاة خليعة
طردتها مسز بولتنى قبل ذلك . وقد طلب من تشارلز ان ينهي خادمه
عن هذا السلوك الشائن ، فقال لخطيبته :

- يا حبيبتى الحمقاء تينا ، لماذا نحرّم الآخرين مما يجعلنا نحن نتم
بكل هذه السعادة ؟ وماذا لو ان هذه الخادمة الرديئة تتبادل الحب
مع خادمي التذل سام ، ايجب علينا ان نرحبهما بالحجارة ؟
ولكن هذا كان موقف تشارلز وحده ، اذ يقول المؤلف « وقد كان
الخدم في تلك الايام يعدون شيئاً لا يزيد الا قليلاً عن قطع الاثاث ،
وكثيراً ما كان سادتهم ينسون ان لديهم آذاناً وذكاء » ، وسوف نرى
كيف ان حب سام لماري ، وطموحه ، كانا سبباً لخياطته لسيده بما
يجعله يستحق وصفه له بالثذالة ، ولو انه كان هازلاً متعطفاً عندما
وصفه بها .

دكتور جروجان : طبيب البلدة ، ايرلندي ، رجل علم آخر ،
دارويني تماما ، وينتامي ايضا « كان هناك شيء قائم قليلاً في حياته ،
فقد ولد كاثوليكياً ، وبذلك فان نظرة اهل زمانه له لا تختلف كثيراً
عن نظرتنا في عصرنا هذا الرجل كان شبيوعياً في الثلاثينات ، يقبله
المجتمع الآن ، ولكن يظل هناك شيء شيطاني يحيط به . ومن المؤكد انه
اصبح الان - كندرائيلي - عضواً بكنيسة إنجلترا ، والا فكيف لمسز
بولتنى ان تسمح بوجوده في حضرتها ؟ لا بد انه كان حقاً كذلك ، لانه
- بخلاف دزرائيلي - كان يحضر الكنيسة صباح كل احد ، ولم يستطع
اهل لايم ان يتصوروا ابداً انه يمكن لرجل ان ينعدم اهتمامه بالدين
الى حد انه كان يمكن ان يتردد على مسجد او معبد يهودي لو ان هذا
كان هو المكان الذي يتردد عليه اغلب الناس ، الا ان جروجان كان
طبيباً ماهراً ، وكانت لديه معرفة جيدة باهم فرع من فروع الطب وهو
امزجة المرضى » .

بذلك تكون قد عرضنا اهم شخصيات هذه الرواية ، ومعها صورة
لاسلوب هذا الكاتب القدير ، وطريقته في بناء شخصياته وتصويرها ،
ونضيف ان هناك : مستر فريمان ، رجل الاعمال ووالد ارستينا، ومسز
ترانتر خالتها ، ومسز فيرلي وصيفة مسز بولتنى وجاسوستها التي
تتبع سارة في نزهاتها وتبلغ عن كل حركاتها وسكناتها للتأكد من نقاء
سيرتها ، ثم هناك قسيس لايم ، وقيسيس اكسيتر وهكذا .

اما ماري الخادمة ، فتخصص الرواية لها وصفا منفرداً لانه اكثر
دلالة على اسلوب فاولز والشكل الذي يختاره لروايته التاريخية :
« ومن بين النساء الشابات الثلاث اللواتي يظهرن في هذه الصفحات ،
فقد كانت ماري - في رأيي - اجملهن بكثير » ويستمر في وصفها
بمصطلحات انجليزية وفرنسية الى ان يقول « كان لديها كل ما هو مفر
في الامتلاء دون تفقد محاسن النحافة ، وان حفيذة مساري ،
والتي تبلغ الثانية والعشرين في هذا الشهر الذي اكتب فيه ، تشبهها
كثيراً ، وهي معروفة في العالم كله ، لانها واحدة من اشهر ممثلات

ارستينا فريمان : خطيبته ، في العشرين ، حسنة التربية بمقياس
عصرها « كانت احياناً تعجب لماذا يسمح الله بان تلوث العاطفة النقية
بهذا الواجب الحيواني الدنيء ؟ وكان اغلب نساء عصرها يرين نفس
الرأي ، كما كان اغلب الرجال ، وليس غريباً ان يصبح ادراكنا
لفكرة الواجب مفتاحاً لفهمنا للعصر الفيكتوري ، الواجب الذي اصبح
كارثة كبرى في عصرنا هذا « وهي فتاة وحيدة ، مدللة ، كحة واحدة
تجلب الطبيب « ولم يكن ابواها يعلمان انها وقد ولدت سنة 1846 ،
سوف تموت في اليوم الذي غزا فيه هتلر بولندا » ، وكل من تقدموا
لخطبتها من الشبان « كانوا يتعرضون لتحريرات تشبه تلك التي تجريها
المخابرات لعلماء الذرة في عصرنا » ، وقد كان الخطاب كثيرين « اذ ان
غيبية الاشياء والشقيقات كانت ابلغ من اي اقرار ثروة تقدمه البنوك »
وبرغم اقامتها في لندن ، فانها اثناء احداث هذه الرواية (اي اثناء
ربيع 1876) كانت تقيم عند خالتها في بلدة اسمها « لايم » على الساحل
الجنوبي الغربي لإنجلترا ، وكان تشارلز اذ ذاك يقيم مع خادمه فني
فندق بهذه البلدة ، التي هي المسرح الرئيسي لحوادث هذه الرواية .
مسز بولتنى : عجوز ثرية تعيش في قصرها في لايم مع ثلاثة عشر
خادماً وخادمة ، فيكتورية متعصبة متمتة ، ضيقة الذهن والافسق ،
تفعل الخير طمعاً في ثواب الآخرة فقط .

سارة وودراف : عشيقة الضابط الفرنسي ، مربية سابقة
كانت تعمل عند أسرة في لايم ، ثم غرقت سفينة فرنسية وانقذ بعض
من كانوا فيها وجرى بالضابط الفرنسي فارجين (وهو لا يظهر لنا ابداً)
ليقيم عند مخدمها ، ونتيجة لعرفتها للفرنسية فقد كانت تترجم الحديث
الدائر بينه وبين مضيفه وزوجته ، وهكذا اعتادت محادثته وتمت بينهما
علاقة ، وعدها الضابط بالزواج ثم غادر البيت الى بلدة « اكسيتر »
القريبة وهناك تبعته ولكنه التمس لنفسه اعذاراً للتأجيل وسافر بعد
ان وعدها بان يرسل لها لتلحق به ولكن اخباره انقطعت واتضح انه
متزوج ، ادت الفضيحة الى تركها لعملها وازواجها ، وذات يوم كانت
مسز بولتنى تراجع حسابها مع الله وراى انها مدينة له بما لا بد من
تسديده اذا ارادت ان تضمن الجنة ، فأشار عليها قسيس لايم بان
تستخدم هذه المرأة البائسة فقبلت ذلك بعد ان استجوبتها في قصة
حبها « كان يمكن لهذه السيدة ان تجد عملاً في الجستابو ! » ثم جعلتها
تكتب لتأكد من حسن خطها ، ثم امتحنتها في القراءة ايضا بعد ان
حارت بين المزمور المئة والتاسع عشر « طوبى للكاملين طريقاً السالكين
في شريعة الرب » ، والمزمور المئة والاربعين « انقذني يا رب من اهل
الشر من رجل الظلم احفظني » ، وجعلت القسيس يعتبر عن معرفتها
للفرنسية بان « هذا يا سيدتي هو شأن جميع المربيات ! » من امتع
ما في هذه الرواية وصف المؤلف لمسز بولتنى وحوارها مع القسيس
وحسابها للثواب بمقدار ما تهبه وانشغالها بما ادرجته في وصيتها وهل
سيصل الى علم الله بعد موتها ؟ يظهر المؤلف هنا قدرة فائقة على
السخرية يفوق فيها ما نجده عند ديكنز مثلاً ، ويذكر فاولز في سياق
قصته ان الشخصيات التي كان يأتي بها ديكنز في رواياته تدل على ان
معرفة للمجتمع الذي كان يعيش فيه قاصرة على وجهة نظر الطبقة التي
كان ينتمي لها .

سارة اذن شخصية منبوذة من المجتمع تعيش على احسان هذه
العجوز الثرية ، ويقول المؤلف في وصف شخصيتها :

« كان لديها ما يمكن ان يكون معادلاً سيكولوجياً لمهارة تاجر الخيل
المجرب ، القدرة على معرفة الحصان الجيد من الحصان الرديء من
اول نظرة ، او انها كانت كما لو أن لديها - لو ثبت قرنا الى الامام -
حاسبا الكتروني في قلبها » ، وللقارىء ان يعجب ، كيف اذن خدعها
الضابط الفرنسي ؟ ولكن لهذا تفسيراً سيكولوجياً كافياً سنأتي له ،
(وقد قرأت من القصص ومن الشعر - هذين الملاذين اللذين يلجا اليهما

نسقط باكية على ارض غرفتها . اننا نعرف انها كانت حية بعد اسبوعين من هذا الموقف ، ولا يمكن اذن ان تكون قد الفت بنفسها . كما ان الدموع التي كانت تدرفها عينها ليس من النوع الذي يسبق العنف ، انها تلك التي تأتي من الاحساس بالمرارة والبؤس ، والتي تتسرب من العيون ببطء ودون انقطاع ، كما يتسرب الدم من خلال الضماد .

ومن خلال أي ظلمة تأتي ؟

هكذا ينتهي الفصل الثاني عشر ، ويبدأ الفصل التالي بهذه المفاجأة التي يأتي بها المؤلف مستأنفا حديثه :

« لا اعرف ، ان هذه القصة التي احكيها كلها خيال في خيال و تلك الشخصيات التي اخلقها لم توجد الا في مخيلتي . و اذا كنت حتى الان قد نظاهرت بانني اعرف ما يدور في ادماغ هذه الشخصيات ، فذلك لانني اكتب طبعا للاعتماد الذي كان سائدا في عصر قصتي هذه - كما انني ايضا اكتب بأسلوبه والعاظه - وهو الاعتماد بان المؤلف الروائي خالق بعد الله . فد لا يعرف كل شيء ولكنه يحاول ان يتظاهر بانه يعرف ، ولكنني اعيش الان في عصر آلان روب جرييه و رولان بارتيه ، و اذا كانت هذه رواية ، فانها لا يمكن ان تكون رواية بالمعنى الحديث لهذه الكلمة » .

مما يؤسف له حقا انني - خوفا من الافراط في الاطالة - لن استطيع ان اورد هذا الفصل كاملا ، وسأكتفي بان اقول ان المؤلف يمضي ثلاث صفحات على هذا النحو ، ويصف لنا ازمه الكاتب الروائي المعاصر متمثلة في موقفه هو من شخصيات هذه الرواية ، ويذكر لنا كيف ان القارئ يظن ان الكاتب الروائي يفعل بشخصياته ما يشاء ولكن الواقع : « اننا نعرف ان الدنيا الحقيقية ما ان نخلق حتى تمضي مستقلة عن خالعتها ، وانه عندما نبدأ شخصياتنا واحداً نعضى اوامرنا ، فانها عندئذ تبدأ حياتها » وانه قد يكون كاتباً لسيرته الذاتية منقولة الى عصر آخر ، ولعله الان يعيش في منزل من المنازل التي يصفها لنا ، وانه قد يكون هو تشارلز نفسه « ان النساء المحذرات من نوع سارة يوجدن ، ولم استطع ايدا ان افهمهن » .

هذا الانقطاع في سياق الرواية ليس في ذاته شيئا جديداً ، وانا نجد عند كتاب غير فاولز ، مثلا في روايه الدوس هكسلي « نقطة مقابل نقطة » ولكنه يأتي به على انها مفتحات من مكررة كاتب روائي هو احدى شخصيات الرواية ، وليس على لسانه هو كمؤلف . وسوف نرى في عرضنا لرواية فاولز هذه ، ان الامر سوف يتكرر وانه قد اتخذ لروايته شكل حديث من مؤلف لقائه . وهناك نفاض شديد الوضوح بين الواقعية الكاملة التي يصل اليها في خلق شخصياته واحداً وربطها بحقائق العصر الفيكتوري والعصر الحاضر ، وبين تذكيره لنا اكثر من مرة بان ما يكتبه ليس الا صناعة قصصية .

نظل علاقة تشارلز بسارة علاقة الجنتمان الطيب بالمرأة المنبوذة التي تستحق العطف ، ولكن مقابلاتهما كانت امرا بالغ الخطورة . « وبدأ تشارلز يحس بالحيرة بين عالمين ، المدنية النظيفة الدافئة خلف ظهره ، واللغز الغامض الذي ينتظره في البرودة . كلنا شعراء ، الا ان المسألة - ببساطة - هي ان الشعراء هم الذين يكتبون بالكلمات . » ثم دعي تشارلز للعشاء عند الدكتور جروجان ، وبدأ حديث طويل وممتع عن داروين ، وداروين يفوق للنظور ، والتطور الى عينسات المخوفات ، وهناك عينة تثير الاهتمام هي سارة . والطبيب يعرفها جيدا « ان الامر يبدو كما لو كانت هذه المرأة قد ادمت الكتابة كما يدمن غيرها الاقيون ، أترى ؟ ان حزنها قد اصبح هو سعادتها ، انها تريد ان تصبح ضحية ياسميثون ، من الممكن علاجها ولكنها لن ترضى بذلك ، تماما كما لو كانت مريضة ترفض ان تتعاطى الدواء » .

واخيرا تتقابل سارة مع تشارلز وتقص عليه حكايتها مع الضابط

هكذا يصل المؤلف نفسه بالعصر الذي نفع حوادث قصته ، وهكذا يجعل كل ما يكتبه يبدو كما لو كان حقائق ثابتة ، تأتي من مصادر وثيقة . انه يذكر لنا انه يعرف سليله ماري كما نعرفها فهي ممثلة شهيرة ولكنه لا يذكر لنا أين رأى ماري ؟ هل رأى صورنها عند حفيدتها ، ام انه يصفها كأي مؤلف يصف احدى شخصياته ؟ ام ان انباءها جاءت ، تماما كما يكتب اليوم رواية يتمثل فيها تيمورلنك مثلا ، ونحن نسمع انه كان اعرج ، او كافر الاخشيدي مثلا ونحن نعرف انه كان اسود ؟ ولكن ماري لم يكن لها من الشهرة ما اصابته حفيدتها الممثلة ، انها ليست « احنايون » الذي يستطيع مؤلف مثل فالتاري ان يرى تمثاله الضخم في متحف القاهرة ويتخذ منه صورة لدهنه وعلمه اذا اراد . هكذا يعتمد فاولز الى اتخاذ موقفين متناقضين ، يجعل كل شيء يبدو وادما حدث فعلا ، ويعود بين آن واخر - كما رأينا وسنرى - الى تذكيرنا بانه ليس الا مؤلفا يكتب قصة من اختلافه . هذه هي وجهة النظر الفريدة التي نتميز بها هذه الرواية .

القصة

سارحة بانظارها الى الغرب ، فوق البحر ، عاصفا كان او ساكنا ،

فهي دائما هناك

يحدوها الامل ، وهي واقفة بمفردها

لا تنصرف انظارها عنه

لا شيء يجذبها ، لا شيء يستحق

بهذه الابيات من شعر توماس هاردي يبدأ الفصل الاول . وفي كل فصل كما أسلفنا ، جزء في اعلى الصفحة يتضمن الشعر والنثر الذي يختاره المؤلف . وقصيدة هاردي هذه « اللغز » تتضمن هذا الجزء الذي يأتي به المؤلف كمقدمة لظهور سارة وهي تنظر الى البحر وتحلم بعودة الضابط الفرنسي .

تشارلز وخطيبته يتمشيان على الشاطئ ويلمحان سارة ، فيسأل تشارلز عن تكون هذه المرأة الغريبة ، اما ارنستينا فيصيحها الدعس انها عشيقة الضابط الفرنسي ، لا تنظر اليها ! » .

تشارلز يتمشى كثيرا في الغابة ، وكذلك سارة ، فهي توصل الرسائل الدينية التي تبعث بها مسز بولنتي لاصدقائها وتختار لذلك طريق الغابة .

ذات مساء كان تشارلز يبحث عن الحفريات الصغيرة كعادته ، ثم دخل الغابة ، ومر على كوخ لجان شرب عنده كوبا من اللبن ، واعطاه بنسا « عليه رأس من هذه الرؤوس اللطيفة ، التي تصور الملكة فيكتوريا الشابة ، والتي ما تزال حتى الان نجدتها بين آن واخر في الفكة التي نتناولها ، ممسوحة فقط بفعل الايدي التي تداولتها عبر القرن » ، ثم رأى سارة وهي تسيير بمفردها و اراد ان يثبت لهذه المرأة المسكينة انه ليس كل من يعيش في هذه الدنيا بربريا متوحشا ، فحادثها ، معتذرا لها عن انه لم يقدم لها التحية عندما رآها في مناسبتين سابقتين ، لانه لم يكن يعرف انها سكرتيرة مسز بولنتي .

تكرر هذا الموقف بالطبع ، ولعل محادثات تشارلز مع سساره ومقابلاتها لها في الغابة ، بالصدفة اول الامر ثم بالتواعد بعد ذلك ، من اكثر مواقف هذه الرواية اظهارة لبراعة هذا المؤلف وفدرة القصصية الفائقة .

ولكن مسز بولنتي قد سمعت بان سارة تتمشى في الغابة وهي مكان « يجعل سدوم وعموره (عاد و نمود) يتمثلان على وجهها » ، لانها مكان منعزل يقال ان العشاق يتقابلون فيه ، فاستدعتنا ونهتها عن ذلك نهيا قاطعا .

وفي هذا المساء ، وقفت سارة في نافذة غرفتها ساهمة : « انني لن اجعلها تفزع من فوق حافة النافذة ، او تترنج نسم

الفرنسي ، وكيف انها عندما قابلته في فندقه فيل رحيله « عرفت اذ ذلك انني لم اكن بالنسبة له سوى مادة للتسلية اثناء نقاشته » . وانها لا تستطيع الان ان نفسر مسلكتها « لقد اعطينته نفسي » هكذا تقول .

تتخذ الرواية في هذا الفصل طابعا دستوفسكيا هو المفاجأة الثانية « كنت اعرف ان مسلكتي يغتوي على الفساد والكفر ، ولكنني لم اجد وسيلة اخرى تخرجني من الشخص الذي كنته ، لو انني تركت الغرفة وعدت الى المنزل الذي كنت اعمل به ، واستأنفت وجودي السابق ، لكنك الان ميتة بالفعل ، كنت انسحرت . ان الذي ابقاني حية هو عاري ، ودعلي بانني لست كغيري من النساء ، وانني لن اتزوج ابدا ولن انجب ، انه لا توجد اهانة يمكن ان يلحق بي ، ولا لوم يوجه الي » ، لانني تجاوزت هذا كله ، انني لم اعد آدمية ، انني عشيقية الصابغ الفرنسي » .

كان تشارلز يسمع هذا « وقد سامحها بينه وبين نفسه ، وسرح بخاطره الى حيث يمكنه ان يتصور استماعه هو نفسه بهذه المرأة . مثل هذا التفكير الجنسي يستحيل تماما هذه الايام ، ان الرجل والمرأة في عصرنا ما يكادان يتقابلان حتى يبدأ التفكير في الاتصال الجسدي . ولكن عقل تشارلز لم يكن يجزء على التفكير فيما هو ممنوع علنا ، وقد كان الفيكتوريون يتميزون بهذا الطابع المصري الغريب ، وهو حب كل ما هو ضيق ، الاماكن والاشياء التي تشبه لفائف المومياء ، النوافذ الصغيرة والخوف من كل ما هو رحب وعار من القطاء » .

بهذا تعترفه اعترافا كاملا ، لعل له جنوره الدينية والسيكولوجية ولكن المؤلف لا يأتي بها ، بل يمضي للفصل التالي مصدرا له بقصيدة ماتيو آرنولد « الفراق » :

سامحيني ، سامحيني يا مارجريت
كم تمنى ذراعي ان تمتدا لتمسك بك ،
ولكن انظري ، انه لا أمل
في الهواء الخاوي المؤدي اليك
تمتد ذراعي المجهدتان
ولكن بحرا يهدر بيننا
ماضيانا المختلفان

تصل لتشارلز برقية من عمه الثري الازرب يستدعيه لامر هام ، ذلك انه اعتزم الزواج وبذلك يحتمل ان ينجب وتضيع على تشارلز ثروته ولقبه . ارنستينا تظهر سخطها بشكل يثير اشمزاز تشارلز ويدفعه نحو سارة ! ولكن اين سارة ؟ لقد طردتها مسز بولتنى لانها عرفت انها تتشى في الغابة ، واختفت ، ولكن مسز بولتنى لم تعرف انها تقابل تشارلز ، ان سام وماري فقط هما اللذان اكتشفا هذا السر الخطير .

يبدأ البحث عن سارة ، والدكتور جروجان يعاون في البحث ، وتشارلز يعترف له بمقابلاتهما فيحدره منها ويذكر له امثلة كثيرة لحالات نفسية كان المصندي عليه فيها هو الذي « يستدعي » الاعتداء ويأتي المؤلف هنا بأمثلة تاريخية . ويبدأ دراسة شيقة مدهشة للعصر الفيكتوري مؤيدة بالحقائق التاريخية ، وما يسمعه من ابنة طيبسب توماس هاردي ، ثم يفاجئنا بقصة لم تنشر عن هاردي الذي كان اول من بدأ يكشف النقاب عن اسرار حياة الفيكتوريين ، وهي انه عندما أم هاردي دراسته الهندسية خطب ابنة عم له ما لبث ان عرف انها ليست في الواقع سوى ابنة غير شرعية لاخته غير الشقيقة .

ذهب تشارلز لمقابلة والد خطيبته ليطلع على انباء عمه ، وذلك اعتقادا منه بان هذا واجبه ، وقد تنتشر الاشاعات بانه كان يعرف بان عمه ينوي الزواج وانه نتيجة لذلك قد لا يكون وريثا له ، كما قد قال ان ارنستينا قد اختارت من لن يأتي لها بلقب كان في تناولها عند غيره . ولكن الاب طيبسب خاطره بل ويطلب منه ان يحل محله في ادارة

اعماله حيث لا وريث له سوى ابنته . يتمثل الصراع بين الارستقراطية والبورجوازية في هذا الموقف ، لا شيء هنا افضل من شعر تيسون يتصدر الفصل التالي :

حتما ذات يوم ، سيدمفني طابع العصر الذهبي
ولم لا ؟ انا لا ثقة لدي ولا امل

ويمكنني ان اتخذ وجهها من الصخر وقلبا كشق الرحي
واخذع الناس ويخدعونني ، ثم أموت ، من يدري ؟
انما نحن رماد وهشيم !

تشارلز يحتقر هذه الفكرة ، ويزداد اقترابا من سارة برغم تحذير جروجان ، يقضي سهرة حمراء مع اصدقائه في لندن ويلتقط امرأة من الطريق يمضي معها الى غرفتها ، وهنا يأتي المؤلف بموقف يعدل رواية كاملة !

ويعد معارضة ومداعبة وحوار غاية في الروعة ، يسكر تشارلز سكرا بينا ويسأل المرأة :

– ما اسمك ؟

– سارة يا سيدي !

فتنقلب معدته وتسعفه المرأة ويهرب بجلده .

هكذا تصل الرواية الى النقطة التي تجعل كل فاري يسأل نفسه : « ترى ما الذي سيفعله المؤلف الان ؟ لقد وصلنا الى موقف غاية في الصعوبة » .

وهنا يلجأ المؤلف الى مفاجات جديدة عديدة . فهو نفسه حائر في نهاية قصته ، وقبل نهايتها بمائة صفحة ، يقدم لنا النهاية الاولى .

كتب تشارلز خطابا لجروجان يرجوه فيه ان يوفر العناية الطبية لسارة ويعد بان يعترف لخطيبته بكل شيء ويطلب صفحتها وهذا ما حدث فعلا وتنتهي الرواية ويعيش الجميع في التيبات والنبات . « ما الذي حدث لسارة ؟ لا اعرف » ثم يمضي : اما فلان فكذا واما علان فكيك « ومن ايضا ؟ دكتور جروجان ؟ مات في الواحدة والتسعين من عمره » .

ولكن ما كل هذا الجزء الباقي من الرواية ؟

في الفصل التالي يقول لنا المؤلف ان هذه هي النهاية التقليدية التي تأتي عندها يفقد المؤلف انفاسه ويتعب . وانه اذا كنا كلنا شعراء فاننا كلنا روائيون ايضا ، نؤلف النهايات التي نرجوها لحياتنا وهكذا كان تشارلز ، والنهاية التي قرأناها الا كانت هي التي ألفها تشارلز لنفسه وليست « ما حدث فعلا » .

سارة تقيم في فندق وترسل عنوانها لتشارلز ، تشارلز يزورها في الفندق حيث يتم اللقاء الجنسي الذي يصفه المؤلف بتفصيل لم يسبق له مثيل ، ويتضح ان سارة عذراء وانها لم تطع نفسها للصابغ الفرنسي ، فلماذا كذبت ؟ لتجذبها ليعتدي هو عليها ، بعدها تشارلز بان يتزوجها ولكنها ترد بانها لا تستحقه !

وهكذا فسح شارلز خطبته وعاد الى فندق سارة ولكنها اختفت! يبدأ البحث عنها بكل وسيلة وفي كل مكان ، وبواسطة وكالات المخبرين ومكاتب توظيف المربيات بل وفي المنازل التي تستخدمهن . ولو ان فاويز يعرف من شعر ابي نواس ما يعرف من شعر تيسون وماتيو آرنولد ، لصدر هذا الجزء بقوله :

الله بيني وبين سيدها

يفر مني بها واتبعه ..

يستمر البحث شهورا بلا فائدة ، مستر فريمان يقاضي تشارلز ويرفمه على توقيع اقرار بالذنب وبانه هو الذي فسح خطبته وأخل بوعده وانه شخص غير شريف ... الخ ، وهكذا يفر تشارلز من انجلترا ويطوف حول العالم ويזור امريكا ثم يعود بعد سنتين عندما تصله انباء من محاميه بالعثور على سارة .

وهنا يظهر لنا المؤلف نفسه ، على صورة رجل يواجه تشارلز في القطار ويتفرد فيه ويفكر « ما الذي ساقطه بشأنه ؟ » .
 دخل تشارلز المنزل الذي تقيم فيه سارة ، منزل رجل فنان يقيم مع اخيه واخته وهي تشتغل معهم بالفن ، فوجئت سارة بوجود تشارلز ودار بينهما حوار طويل ، ورفضت سارة ان تتزوج ، ان الفنان يحبها ايضا ولكنها هي لا تريد ان تتزوج « لعد وجد تشارلز نفسه في موقف يشبه الذي تضيق عليه ثروة كبيرة بسبب جملة كتبت خطأ في وثيقة رسمية » نار تشارلز على سارة بعبارة يصفها المؤلف نفسه بالميلودراما ، ويظهر ان الميلودراما كالفاريت ، تحدث عن الميلودراما يظهر ... اذ ان المؤلف هنا يفرق فيها الى أذنيه .

اخيرا عندما غضب تشارلز قالت له سارة انها ستأتي له بسيدة تحكمها في الامر لتفصل بينهما ، وان رأي هذه السيدة يجب ان يراعى نظرا لسنها . وهنا تأتي له بالطفلة التي انجبتها منه . يذكرنا هذا الموقف بما نراه في معظم افلامنا السينمائية ، عندما تنتهي الرواية في منتصفها ثم يخلق المؤلف أي سوء تفاهم يراه مناسباً لاطالتها ، والمنظر الاخير هو البطلة وهي تسير على قضبان السكة الحديد وكانها منومة مغناطيسيا ، والقطار فادم ثم يأتي البطل مسرعا لانقاذها وهو يحمل طفلتها ، وقد يتعثر مرة او مرتين اذا لزم واخيرا يخطفها من امام القطار بينما المآذون ينتظر على رصيف المحطة ومعه الدفتر والشاهدان .

هذه هي النهاية الثانية ، ولكن المؤلف هنا يظهر ثانية (بلحيته التي تشبه لحية الانبياء) ، ويبدو ان ساعته كانت تسبق الوقت لانه يرجع بها قليلا الى الوراء فتجد تشارلز وهو يشور على سارة ثانية ، يرجع الزمن فعلا بتأثير الة الزمن الحديثة التي يحملها جون فاولز في جيبه .
 وهنا تأتي النهاية الثالثة وهي بدون طفلة وينتهي الامس بالفراق .

((قد ترون ان سارة كانت محقة في موقفها ، وان معركتها مع

دار الآداب تقدم

هربرت ماركوز ترجمته ادوار الخراط

نخرا التحرر

فيما وراء الإنسان ذي البعد الواحد

فيما وراء الإنسان ذي البعد الواحد ، كيف السبيل التي تحرر الإنسان ؟ هذه هي المسألة الاساسية التي يعمل عليها هربرت ماركوز عناصر الاجابة في الدراسة الراهنة الموضوعية بين يدي القراء .

وهو يرى ان الطريق الجديدة المتاحة اليوم تمر بالاعتراض والاحتجاج الدائمين . ففي قلب المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا ، سواء كانت اشتراكية ام رأسمالية ، يتيح الاحتجاج وحده تجديد حاجات البشر وارضاهها يرفض قواعد « اللعبة » القمعية .

وبعد ان ينتقد ماركوز الانظمة الاجتماعية الحالية ، يضع في هذا الكتاب الهام الذي يعتبر تمة لكتابه « الإنسان ذو البعد الواحد » و« فلسفة النفي » مبادئ عمل سياسي بناء ..

٢٠٠ ق ل

صدر حديثا

محمد الحديدي

القاهرة